تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

الثالث ـ قرئ فى السبع « وَلَا يَأْمُرَكُمْ » بالرفع على الاستئناف أى ولا يأمركم الله أو النبيّ ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

«فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم. ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية. وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسى تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة فى تشهير أمره . ولا يمنعهم ماهم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ فى السبع بفتح اللام من : لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ . وكسرها ، فعلى الأول هى موطئة للقسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و«مَا» حينئذ تحتمل الشرطية ، و«لَتُؤْمِنُنَّ» سادّ مسد جواب القسم والشرط . وتحتمل الموصولة بمعنى «لَلَّذِى أَتَيْتُكُمُوهُ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» وعلى الثانى ، أعنى كسر اللام فى «مَا» إما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفى قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : توكيد عليهم . ومن أمعن فى نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ فى شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فمع أممهم أولى . وقد روى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً، وهو حىّ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضادّ ماقاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علىّ وابن عباس ـ انتهى ـ

ومن أثر علىّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبينا ﷺ كما نقل القاضى عياض فى (الشفاء) عن أبى الحسن القابسىّ قال : استخص الله تعالى محمداً بفضل لم يؤته غيره أبانه به . وهو ما ذكره فى هذه الآية ـ انتهى ـ وقد علمت المراد .

بقى أن الإمام أبامسلم الأصفهانىّ ذهب إلى أن فى قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أممهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجاب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك[(١)] ، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض ، فكذا هنا . وقال: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[(٢)] وقال في صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[(٣)] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ[(٤)] وبأنهم: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[(٥)] . فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا ههنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولي ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ،

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .